بوابة الإله

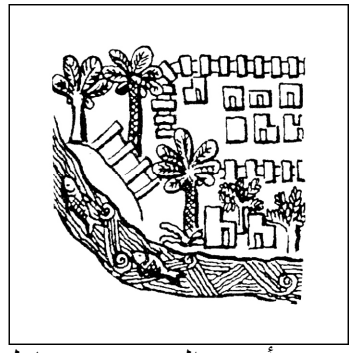

بابل مبنية بشكل أجمل من أي مدينة معروفة عندنا

هيرودوت ١: ١٧٨

كادنجرا

أسس السومريون بابل منذ الألف الثالثة قبل الميلاد ولما كانت حينئذٍ بلدة صغيرة لا تعلب دوراً ملحوظاً بدرجة ما في حياة البلاد، مع أنها أخذت من مؤسسيها اسم كادانجر الذي يعني بالسومرية «بوابة الإله» ونهبت بابل وخضعت لملوك أكاد وغوت والملك الأوروكي أوتو - حيجال وملوك الأسرة الثالثة لأور متناوبين بين بعضهم بعضاً السيادة على بلاد سومر وأكاد وهكذا استمر الأمر حتى عام ١٨٩٤ ق.م عندما استولى على بابل الأمير العموري سومو آبوم أول ملك على بابل ومؤسس السلالة الملكية البابلية الأولى «١٨٩٤-١٥٩٥ ق.م» وفي السنة الأولى من حكمه أقام سومو - آبوم سور مدينة بابل وقبيل هذا التاريخ صار سكان المدينة ساميين وليسوا سومريين وفي هذا الصدد ترجمت التسمية القديمة للمدينة إلى اللغة الأكادية السامية وصارت تدعى باب - إيلي[أ] «بوابة الإله» بابل.

وأخضع حمورابي الشهير «١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م» الملك السادس من السلالة الملكية البابلية الأولى لسلطته كل جنوب بلاد النهرين ومنذ ذلك الوقت تحولت بابل إلى المدينة الرئيسة في البلاد وباسمها صار اليونانيون والشعوب الأخرى من بعدهم يسمون البلاد ببلاد بابل وسكانها بابليون.

أ- جاء اسم بابل من لفظ باب - إيلو ،ليس إيلي كما أورده المؤلف» من اللغة الأكادية ومعناه «بوابة الإله» واللفظ نفسه ترجمة للكلمة السومرية «كادنجرا» والأسماء الأخرى التي أطلقت على المدينة كثيرة منها «تندير = مركز الحياة» و«إيريدوكي = المدينة الطيبة» أي الفردوس، إذ كان البابليون يعتقدون أن جنة عدن في بقعتها و«سو - انا = اليد العالية ويظن أن المعنى «ذات الأسوار العالية» وفي المحصلة هو اسم العاصمة العظيمة بابل القديمة «شنعار» - المترجم.

obeikandl.com

ومنذ زمن حمورابي حتى بداية الألف الثالثة قبل الميلاد على امتداد ١٥ قرناً ظلت بابل المركز الاقتصادي والسياسي والحضاري والفكري للشرق القديم. وتركت أثراً لا يمحى في تاريخ الإنسانية. وظلت ذكراها حية حتى عندما غطت الأرض أطلالها وتحولت إلى تلال بابل وقصر وعمران بن علي ومركيس، والحميراء وغيرها. وبالقرب منها قامت في منتصف القرن الماضي قرية الحلة العربية.

وجذبت أطلال بابل انتباه علماء الآثار منذ عام ١٨٥٠ م وقام بالتفتيش عنها أو. ج ليبارد و. ج. أوبيرت و. ف. فرينيل و أو. راسام والجنرل. سميت وغيرهم من العلماء ولكن منذ عام ١٨٩٩ فقط بدأت الحفريات عن المدينة بصورة منتظمة واستمرت حتى عام ١٩١٧ م وقامت بها بعثة المجتمع الشرقي الألمانية الأثرية Deutsche orient Gesellshaft بإشراف روبرت كولدفيهي. واكتشفت بنتيجة الحفريات بابل في عهد نبوخذ نصر الثاني وهيرودوت.

وبقيت بعض الأوصاف عن بابل قام بها أناس لا مجال للشك بأنهم رأوها بأم أعينهم وساروا في شوارعها. ولكن عجباً كيف لم تتطابق واحدة من تلك الوصوفات مع ما اكتشفت في حفريات روبرت كولدفيهي وزملائه ويتعلق هذا قبل كل شيء «بالدرجة الأولى» بأبعاد ومخطط المدينة.

فأسرحدون الملك الآشوري الذي بدأ بإعادة بناء بابل في عام ٦٨٠ ق.م وصفها بمربع محاط بالأسوار طول ضلعه ٣٠ غلوة[أ] أي ٣٦٠٠ ذراع. وبالتالي يكون محيط سور المدينة ١٤٤٠٠ ذراع «نحو ٧٢٠٠ م» والشيء نفسه يخبر به الملك نابونيد البابلي وبحسب قول هيرودوت «كانت بابل بشكل مربع كل جهة «ضلع» من جهاته طولها ١٢٠ ستاد «٢٢.٢ كم» ومجموع الاستادات التي تشكل محيط المدينة ٤٨٠ «٨٨.٨ كم».[1]

وحدد الطبيب والكاتب اليوناني اكتيسياس بحدود القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد الذي عاش زمناً طويلاً في البلاط «القصر الملكي» الفارسي - طول سور بابل بـ ٣٦٠ ستاد «أي ٦٦.٦ كم»[ب][2] أما أنصار «أتباع» الاسكندر المقدوني المحاربين الذين زاروا بابل بعد ٧٠٠ سنة حددوه بـ ٣٦٥ ستاد «٦٧.٥ كم»[3].

أ- الغلوة = مقياس يوناني الأصل يبلغ ٦٠٦ أقدام إنكليزية «أي ١٨٤.٧ م» أي ١/٨ ميل روماني والغلوة اليونانية أقصر قليلاً من الغلوة الإنكليزية التي تبلغ ٦٦٠ قدماً «أي ٢٠١.١ م» أي ١/٨ ميل إنكليزي.

ب- الستاد «الاستديوم» = وحدة إغريقية قديمة من وحدات الطول تتراوح بين ٦٠٧ و٧٣٨ قدماً إنكليزياً أو وحدة رومانية قديمة للطول تساوي ٦٠٦.٩ قدماً إنكليزياً أي على التوالي ١٨٤.٦٤ م و٢٢٤.٤٩ م أو ١٨٤.٦١ م. أما وصف هيرودوت بحسب ما ورد في مراجع أخرى فيقول «إنها تقع في سهل عظيم خصيب مربع الشكل طول ضلعه نحو ١٤ ميلاً «٢٢.٥٢٦ كم» ومحيطها ٥٦ ميلاً «٩١.١٠٤ كم» ومساحتها ١٩٦ ميلاً مربعاً «٥٠٧.٤٢ كم٢» وبما أن هذه المساحة هائلة وبما أن آثار الأسوار لم يعثر عليها في بعض الأماكن فقد تطرق الشك إلى هذا التقدير. أما إكيتيسياس فيقول كان محيط المدينة نحو «٦٥.٥٤ كم» بعدد أيام السنة أي نحو ٤٢ ميلاً «أي ٦٧.٥٧ كم»... الخ - المترجم.

وفي الواقع إن بابل عبارة عن مخطط ممتد من الغرب إلى الشرق بشكل مربع منتظم تقريباً بسور محيطه ٨١٥٠ م ومساحته نحو ٤ كم٢. وكانت أضلاع هذا المربع موجهة بحسب «الرياح الأربعة» وهذا يعني بحسب الجهات الأربع التي عند البابليين التي لا تتطابق مع التي عندنا، فالشمال البابلي «إيلتانو» بتطابق مع الشمال - شمال غرب عندنا والجنوب «شوتو» مع الجنوب - جنوب شرق والغرب «أمورو» مع الغرب - جنوب غرب أما الشرق «شادو» فمع الشرق شمال شرق عندنا.

ويجري نهر الفرات من الشمال إلى الجنوب قاسماً المدينة إلى قسمين غير متساويين، فعلى الضفة اليسرى للنهر توجد المدينة القديمة أما على اليمين فالمدينة الجديدة الأصغر من حيث الأبعاد وهكذا كانت بابل في الحقيقة.

وزرعت حول بابل بساتين النخيل والأشجار المثمرة وتوزعت دور «فيلات» أبناء البلد الأغنياء والقرى والمزارع حيث عاش الفلاحون والبساتنة.

وأقام الملك نبوخذ نصر الثاني حول هذه الضواحي على الضفة اليسرى لنهر الفرات السور الخارجي بطول نحو ١٨ كم تقريباً وبحساب هذه المنطقة التي ضمن حدود الأسوار تصل المساحة الكلية «لبابل الكبرى» إلى ١٠ كم٢ وكان عدد سكانها لا يقل عن نصف مليون إنسان.

وحتى في المقياس الحالي كانت بابل مدينة كبيرة أما بالمقارنة مع المدن القديمة الأخرى فتبدو عملاقاً حقيقياً. زد على ذلك السلسلة المتصلة من الأرباض والضواحي المتصلة ببابل بمجموعتها ككل مع مدينة بارسيب المجاورة الواقعة على بعد ١٧ كم إلى الجنوب من بابل.

وفي النصف الغربي من العالم القديم «وهذا يعني دون الهند والصين» يمكن أن تنافسها من حيث الأبعاد فقط نينوى وقرطاجة والإسكندرية وروما ناهيك عن أن المدن الثلاث الأخيرة فقط من بعد ٣٠٠-٤٠٠ سنة من عهد نبوخذ نصر الثاني وهيرودوت، أما نينوى كما نعرف أيضاً كانت قد خربت في عام ٦١٢ ق.م والمدن الصينية والهندية القديمة العملاقة نشأت فقط منذ الألف الثالثة قبل الميلاد وبهذا الشكل لم يكن لبابل في القرون السادس - الرابع قبل الميلاد أي منافس في كل العالم[أ].

أ- شغلت نينوى في عهد آشور بانيبال مساحة ٧.٣ كم٢ «ضمن دائرة السوار» واثينا في عهد بيركليس ٢كم٢ «ضمن سور ثيمو ستوكل» وروما في زمن صولون والقياصرة نحو ٣ كم٢ وأما في العصر الإمبراطوري نحو ١٦ كم٢.

وهذا على ما يبدو ويجب أن يوضح لماذا بدت لهيرودوت وإكتيسياس ورفاق الاسكندر المحاربين مدينة خيالية الأبعاد لم يروا مثيلاً لها لا بزمان ولا بمكان.

وعلى كل حال بغض النظر عن أبعادها الهائلة لم تكن بابل مدينة في مفهومنا لهذه الكلمة،فالمدينة بالمفهوم الاجتماعي - الاقتصادي الدقيق تسمى مستوطنة الناس الذين تعتبر أعمالهم الرئيسة هي الصناعة والتجارة، فالمدينة تقابل القرية حيث يمارس السكان بشكل أساسي الزراعة والفلاحة، والعالم القديم أيضاً لم يعرف التناقض بين المدينة والقرية فبابل ونينوى وطيبة المصرية وأثينا وكورينثوس والإسكندرية وقرطاجة وروما بأبعادها وعظمتها وتعداد سكانها تفوقت إلى حد بعيد عن أي مدينة أوربية في العصور الوسطى. واستطاعت أن تنافسها فقط القسطنطينية البيزنطية وقرطبة الموريتانية «المغربية» غير أنهما لم تكونا مدينتين بالمفهوم المشار إليه.

ومن الواضح أنه يجب أن لا ننسى أنه كان في المدينة القديمة حرفيون وتجار من دون تحفظ، بل بالعكس إن ما قيل فقط هو عن بابل كمركز تجاري - حرفي كبير.

بيد أن الحرفة القديمة لم تصل بعد إلى تلك الدرجة من التطور التي نشأ عندها التقسيم الاجتماعي للعمل بين المدينة والقرية وإن تقسيم العمل هذا نشأ فقط في بداية القرون الوسطى في عصر تكون الإقطاعية.

واختلفت المدينة القديمة عن القرية ليس فقط اقتصادياً وإنما سياسياً، ففي اللغات القديمة لا توجد حتى الكلمة التي يمكن أن تتطابق مع المسميات المعاصرة بـ «المدينة» و «القرية» والكلمة الآشورية - البابلية «آلو - alu» دلت على معنى «قرية» أكانت عموماً بابل أو عزبة «مزرعة» لعشرة ساكنين أو نزل مؤقت للرحل.

وسمى القدماء المدينة: قرية مركزية لجماعة من المواطنين «باليونانية - بوليس» «واللاتينية موطن - مدينة Civilas - سيفيتاس» تتمتع بحكم ذاتي «وبمساحة من الأرض - بالبابلية - سيرو Seru واليونانية خورا Xwpx» وسميت مثل هذه القرية بالبابلية «ماخازو - MAHAZU» واليونانية «أستن» واللاتينية «أوربس Urbs» وسموا المستوطنة الصغيرة «بالبابلية كابرو Kapru وباليونانية يورا وباللاتينية روس - RUS» الواقعة في منطقة المدينة التي تخضع لها سياسياً ويعيش فيها أيضاً بصورة دائمة أو مؤقتة مواطنون يخضع لهم «يتبع لهم» أناس يعملون بالأرض «قرية».

وكانت ملكية الأرض الأساس الاقتصادي للمدينة القديمة وتسمية «مواطن» و «مالك» لا تنفصل إحداهما عن الأخرى ولا يمكن تصور المدينة من دون الأرض الزراعية التي تشكل ملكية جماعة المواطنين.

وتمتعت المدينة بحكم ذاتي سياسي وكانت في الوقت ذاته دولة وكقاعدة كانت محاطة بسور وفيها معبد للآلهة الذين كانوا تجسيداً لوحدة جماعة المواطنين ونظام الدولة وحماة المدينة.

ونشأ الإله الوثني من الطوطم القبلي واستمر تجسيد الآلهة البابلية محافظاً على صفات منبتها فكل إله له حيوانه المقدس الذي يرمز إليه والذي نشأ من الفتيشية «الرقية - عبادة الرقي» البدائية. وظلت الفتيشية والطوطمية أيضاً المميز الفظ للمفهوم المادي للإله الذي هو عبادة الأصنام، فعند الوثنيين بما فيهم البابليون لم يكن الإله روحاً لا يدرك وإنما بشكل غرض حقيقي - وثن على شكل صنم من الخشب أو الحجر أو المعدن، وتحلى الصنم بجميع الصفات التي في نظر الوثنيين يجب أن تكون عند الإله مصنوعاً على شكل وشبه الناس الذين يمجدونه. فكان من المتوجب إطعامه وسقايته وإلباسه والترفيه عنه، ويلزمه المسكن والنساء والأولاد.

وكان يمكن إغضابه واستعطافه وخداعه وسرقته، ويمكن الاتجار معه وتطلب الإله الوثني تقديم الذبائح والثمار والأراضي والماشية والتحف والجواهر وحتى الناس في القديم الغابر.

والمعبد الوثني خلافاً للكنيسة المسيحية والمسجد الإسلامي أو الكنيس اليهودي لم يكن مكاناً لاجتماع المصلين المؤمنين وإنما مسكناً للإله «بيت الإله» «بالبابلية بيت - إيلي «ايلو».

وبهيئة الصنم يقف الإله في قدس أقداس الهيكل ويحق بالدخول إليه فقط لدائرة ضيقة من الأشخاص المدعوين «الداخلين البيت» «ايريب - بيتي».

وحمل الإله الوثني الطابع المحلي وكان على ارتباط وثيق مع جماعة محددة ويعبد فقط في هذه المجموعة ويمكن أن يغني مع جماعته. ويمكن إن يقع في الأسر وواحدة من تلك الحالات معروفة عندنا أيضاً فالإله البابلي بعل - مردوك بقي في الأسر الآشوري ٢١ عاماً من سنة ٦٨٩ إلى ٦٦٨ ق.م وطوال هذا الوقت لم تكن الدولة البابلية موجودة وتاريخ الإلهة عشتار الأوروكية أكثر نموذجية.

في القديم «وربما في عام ٢٠٢٤ ق.م عندما سحقت الدولة السومرية الأسرة الثالثة الملكية في أور أو في عام ١١٧١ ق.م في عهد الملك العيلامي كوتير - ناخونت» نقل العيلاميون صنم هذه الألهة من أوروك إليهم في سوز «عاصمتهم» كغنيمة، وهنا أسرت وتأقلمت ومع الوقت صارت إلهة عيلامية. وأخيراً في عام ٦٤٦ ق.م «وفقاً لحسابات المؤرخين الآشوريين بعد مضي ١٦٣٥ سنة على أسر عشتار» نهب الآشوريون سوز واكتشفوا الصنم الأوروكي القديم. وأعاده آشور بانيبال باحتفال مهيب إلى أوروك ولكن بعد مضي قرون عديدة نجحوا في نسيانه «التغافل عنه» وأقتنوا صنماً جديداً للإلهة عشتار.

وكان الأوروكيون مذهولين لدرجة مزعجة عندما عرفوا بفضل آشور بانيبال أن صنمهم الراهن «الحالي» ليس إلهاً حقيقياً وإنما مزيفاً.

ولكن أليس على حساب هذا المزيف عاشت أجيال كثيرة من مواطني أوروك الذين اضطربوا بسببه؟

ولكن الأوروكيين اتخذوا قراراً حكيماً فلم يصدقوا آشور بانيبال وتخلصوا من الصنم القديم عند أول فرصة.

وفي آذار من عام ٦٢٥ ق.م سعى نابو بلاسر أن يستميل العيلاميين إلى جانبه فأعاد إلى سوز آلهتهم التي كانت في أسر الآشوريين وموجودة في أوروك «وأخرج أثناء ذلك الآلهة عشتار المخالفة للعرف من هيكل الآلهة آني «عانا» وأعاد إليه الإلهة عشتار الحقيقية بسلام، أما الإلهة عشتار سيدة عيلام الحاكمة المقيمة في سوز فعادت إليها «سوز». وهكذا لم يكن صنم الإلهة عشتار معروفاً في وطنه الأصلي أوروك ورجع إلى سوز.[4]

ونشأت مدينة وقرية جماعة المواطنين نتيجة للاتحاد المتكرر والاستيطان في مكان واحد لمجموعات كاملة من الجماعات القبلية البدائية كل منها لها إلهها الذي يسكن في المدينة معها وهكذا تشكل مُجمَّع الآلهة المديني، وبقدر ما يزداد الاتحاد السياسي للبلاد والتكتل الاثني «السلالي» يزداد إسكانها في المجتمع ويتعقد أكثر.

وظهر إله أعلى في كل مدينة وإله أعلى لعموم الشعب، والشرك صفة مميزة لكل الأديان الوثنية، في العهد الموصوف كان بعل - مردوك كبير مجمع آلهة بابل «بانتيون بابل» الذي يعتبر ملك الآلهة حاكم بابل وكان حيوانه المقدس تنين بابل المشهور ونجمه السماوي كوكب المشتري ويومه في الأسبوع الخميس «بالفرنسية Jeudi - «يوم المشتري»» وتطورت عبادة الإله مردوك سوية مع بابل وعندما ترأست بابل على البلاد كان الإله مردوك المماثل لكبير الآلهة السومري القديم إنليل «بالبابلية إلليل أو بعل «الرب»» إله الهواء الذي عبدوه في نيبور حيث يوجد معبده إكور «عكور» «بيت الجبال» وهكذا نشأت التسمية المزدوجة للإله البابلي بعل - مردوك «الرب مردوك».

وترأس بعل - مردوك على الآلهة السبعة العليا في بانتيون بابل الذي لكل منهم مدينته ومعبده - المسكن ووظيفته ونجمه السماوي ويومه من الأسبوع. وفضلاً عن بعل - مردوك ضمت هذه السبعة: إله الحكمة نابو[أ] - مدينته بارسيب ومعبده إزيد «عزيد» وكوكبه عطارد ويومه الأربعاء «بالفرنسية Mercredi - «يوم عطارد»». وإله الشمس والعدالة شمش - مدينته سيبار ومعبد إبابار «عبابار» ويومه الأحد «بالألمانية Sonntag «يوم الشمس»».

وإله القمر والمعرفة سين ومدينته أور ومعبده إكيشيركال ويومه الاثنين «بالفرنسية - Lungi «يوم القمر»» وإله الحرب الدموية وحاكم الجحيم نرجال ومدينته كوت ومعبده إميشلام وكوكبه المريخ ويومه الثلاثاء «بالفرنسية Mardi «يوم المريخ»» وإله الحرب الميمونة فارس الآلهة زابابا أو نينورتا ومدينته كيش ومعبده

أ- يعتبر الإله نابو ابناً للإله بعل ولكن دونه رتبة وأعلى من مردوك إله بابل الخاص.

إباتوتيلا وكوكيه زحل ويومه السبت «بالإنكليزية Saturday «يوم زحل» وإلهة الحب والجمال عشتار «هي أيضاً بعليت «الربة» الرؤوم قرينة مردوك أنونيت - نانا - إنانا» مدينتها أوروك[أ] ومعبدها آنا وكوكبها ويومها الجمعة «بالفرنسية Vendredi «يوم الزهرة»».

وهذه الآلهة السبعة جسدت وحدة بابل واتحاد مدنها السبع الرئيسة وكواكب المجموعة الشمسية السبعة.

وعن طريق اليونان والرومان واليهود والعرب دخلت السبعة المقدسة البابلية وبعض الأفكار المرتبطة بها في التقاليد الثقافية لجميع الشعوب المسيحية والإسلامية وهذا يعني النصف الخير من البشرية أجمع.

وحول السبعة العليا تجمع مقدار عظيم من الآلهة العظيمة والصغيرة والمحترمة جداً والتي تكاد تكون منسية ولكل واحد منها معبده وهيكله ومقدسه وفي مركز البلاد الديني بحسب معطيات البابليين أنفسهم بلغ عدد المعابد ٥٣ معبداً وما لا يقل عن ٩٥٥ مقدس و٣٨٤ مذبح في الشوارع دون حساب جميع المذابح المنزلية.

وكان إيساجيله «إ - سا - جيل» «بالسومرية «البيت الذي فيه يرفعون الرؤوس»» المعبد الرئيس لبابل ولكل البلاد ومقام الإله بعل - مردوك وأسرته الإلهية الكثيرة العدد وكان مردوك إله مدينة بابل أما بعل فهو رأس بانتيون «مجمع الآلهة» بابل كله الذي يجسد وحدة المواطنين البابليين وحاكم بابل وكل البلاد وكان لمعبده الذي هو معبد المدينة الرئيس البرج - الزقورة - برج بابل الشهير: أي - تيمن - انا - كي «بالسومرية «بيت حجر أساس السماء والأرض»».

الإله البابلي مردوك

وكان إيساجيله يقع في مركز بابل نفسه وأنقاضه تغطي تل عمران ابن علي التي لم ينجح ر. كولدفيهي بالكشف عنها بالكامل إلا أن مخطط ومنظر هذا المعبد العظيم تحدد بالكامل بواسطة الأوصاف التي تركها نبوخذ نصر الثاني وهيرودوت.

وأرض إيساجيله عبارة عن مستطيل موجه بحسب الاتجاهات البابلية الأربعة وطوله نحو ٦٥٠ م «من الشمال إلى الجنوب» وعرضه نحو ٤٥٠ م «من الغرب إلى الشرق» وكان محدداً من الغرب بضفة الفرات ومن الشرق بتقاطع الطرق الرئيس آيبو شابو وينحرف الشارع عن التقاطع بزاوية قائمة ويؤدي إلى الجسر على الفرات شاقاً أرض إيساجيله إلى قسمين الجنوبي «٤٥٠×٢٥٠ م» وبحسب هيرودوت مربع ضلعه ٢ ستاد = ٣٧٠ م» يقع

أ- بوابة الشمس.

فيه المعبد الخاص أما في الشمالي «٤٥٠×٤٠٠ م» فيقع فيه برج بابل وكل من القسمين محاط بسور وأبواب نحاسية.

ويشكل المكان المركزي من القسم الجنوبي للمعبد هيكل الإله مردوك المسمى «نوخار» على شكل مستطيل أبعاده ٧٩.٣×٨٥.٥ م وله أبواب من جهاته الأربع وكانت عند بوابة الملك نرجال شارو - اوتسور موضوعة تماثيل برونزية للغرفين[أ] ويقع في داخل «نوخار» القصر الكبير «٣١.٣×٣٧.٦ م» ومن حوله توضعت مصليات: إيكوا - قدس أقداس الإله مردوك وكاخيليسود - قدس أقداس الإلهة تساربانيت «عشتار» عقيلته وإزيد - مخدع الإله نابو ابن بعل مردوك حيث يودع صنم هذا الإله عندما يحملونه في وقت عيد السنة الجديدة من معبد إزيد في بارسيب.

وفي الأسفل من المعبد البابلي هناك معبد آخر «هيكل» فيه تمثال ذهبي كبير لزيوس «زفس» الجالس «يعني الإله مردوك».

ويتحدث هيرودوت عن إيكوا هكذا: «تنتصب أمامه طاولة ذهبية ومصطبة ذهبية ومثلها كرسي أيضاً وكل هذا مصنوع كما يقول الكلدان من ٨٠٠ تالنت[ب] «نحو ٢٤ طناً» من الذهب وبجانب الهيكل مذبح ذهبي كما يوجد أيضاً مذبح ذهبي آخر كبير تقدم عليه الذبائح من الأكباش البالغة، وعلى المذبح الذهبي يمكن تقديم ذبائح فقط من الحيوانات الرضع وعلاوة على ذلك كان الكلدان يحرقون على المذبح الكبير سنوياً ١٠٠٠ تالنت «نحو ٣٠ طناً» من البخور في وقت عيد هذا الإله»[5].

وكانت الجدران الرخامية مزينة بالذهب واللازورد وسقفه من خشب الأرز المغطى بالذهب الخالص. وفي حدود نوخار انتصب تمثال ذهبي ضخم للإله بعل - حامي بابل بطول ١٢ ذراعاً «٦ م» وكان حول نوخار قصور أخرى كثيرة ومصليات للآلهة الثانوية ودور ومساكن للكهنة والإداريين والحجاج.

وارتفع في النصف الشمالي من أرض المعبد برج بابل: أي - تيمن - انا - كي وكان المعبد - الزقورة - المدرج زينة ضرورية للمعبد الرئيس لكل مدينة آشورية - بابلية «ماحازو» والديانة السومرية التي استوعبها البابليون والآشوريون الذين عبد أجدادهم الآلهة على قمم الجبال لم يغير الذين هاجروا إلى الأراضي المنخفضة عند أسفل النهرين من عاداتهم وصاروا يقيمون لهم جبالاً اصطناعية - أكواماً - وهكذا ظهرت الزقورات التي من وجهة نظر البابليين تصل السماء بالأرض وهكذا فهم وفسر تسمية البرج الأسرى اليهود الذين شاهدوا للمرة الأولى عظمة ما خلقته الأيدي البشرية بهذه الدرجة.

وهذا الانطباع مرسوم في مقطع مشهور من سفر التكوين عن البلبلة البابلية «وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا

أ- الغرفين = حيوان نصفه نسر ونصفه أسد أي الأسد المجنح. - المترجم -

ب- التالنت = الطالين: وحدة وزن أو نقد قديم وتساوي ٣٠ كغ تقريباً وأحياناً يدعى الوزنة - المترجم.

بقعة في أرض شنعار[أ] وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض هلم نضع لبناً ونشويه شياً. فكان لهم اللبن مكان الحجر وكان لهم الحمر[ب] مكان الطين. وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه الأرض. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج الذين كان بنو آدم يبنونها. وقال الرب هوذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم، وابتدؤوا بالعمل والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعلموه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة. لذلك دعى اسمها بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض»[6].

وتبنى الزقورات من التراب والآجر الطري أما من الخارج فتلبس بالآجر المشوي. وتقوض الأمطار والرياح بسرعة إلى حد ما هذه المنشآت، فهي تنتفخ وتحتاج إلى إعادة إنشائها دورياً، وفي النتيجة صارت الزقورات تبنى أكبر وأعلى بالأبعاد وتغير تصميمها أيضاً وبناها السومريون بثلاثة مدرجات «طبقات» تكريماً للثالوث الأعلى لبانتيونهم «مجمع آلهتهم» إله الهواء إنليل وإله الماء عا وإله السماء آنو.

ووفقاً لذلك كانت الزقورات عند البابليين بسبعة مدرجات وتدهن بألوان مختلفة: الأسود والأبيض والأرجواني والأزرق والأحمر والفضي والذهبي.

وبحسب وصف هيرودوت كانت الزقورة البابلية أي - تيمن - أنا - كي «برج بابل» تبدو هكذا: «في وسط المعبد ينتصب برج ضخم له طول وعرض واحد بمقدار ١ ستاد «١٨٥ م» وفوق هذا البرج يقام برج آخر وفوق الثاني ثالث وهكذا حتى الثامن ويصعد إليها بدرج معمول من الخارج بشكل حلقة تلتف حول كل الأبراج وعند منتصف الدرج الصاعد هناك مكان للراحة مع مصاطب يجلس عليها الصاعدون إلى البرج ويستريحون هناك، وفي البرج الأخير يوجد معبد كبير وفيه ينتصب سرير كبير مرتب بشكل جميل وأمامه طاولة ذهبية ولكن لا يوجد تمثال في المعبد إطلاقاً.

وليس مسموحاً لأحد بالدخول إلى المعبد ليلاً إلا لامرأة واحدة فقط من البلد «الشعب» تختارها الآلهة، هكذا يقول الكلدانيون كهنة هذا الإله، ويقولون أيضاً لماذا أنا يا ترى لا أؤمن أن الإله نفسه كما يقولون يزور المعبد ويستريح في الفراش»[7].

أ- شنعار: التسمية لبلاد بابل - أرض ما بين النهرين - المترجم.

ب- الحمر: القار أو المادة الإسفلتية - المترجم

وكان إيساجيله قد خرب من قبل سنحاريب في عام ٦٨٩ ق.م وبدأ أسرحدون بإعادة بنائه وأشرف على أعمال البناء الوجيه الآشوري المهندس المعمار أرداخيش وانتهى البناء في عهد آشور بانيبال وشمش - شوم - أوكين.

وكان للزقورة وقتئذٍ أساس مربع ضلعه ١٩.٥ م وارتفاعه ٤٢ ذراعاً «٢١ م» وأعاد نابو بلاسر ونبوخذ نصر الثاني إيساجيله فيما بعد وأعطوه فخامة لم يسبق لها مثيل. ووصل ارتفاع إي - تيمن - آنا - كي إلى ٩٠ متراً وكان هيرودوت محقاً عندما تحدث عن طوابقه الثمانية وذلك لأنه بحسب تصور البابليين كان له سبعة طوابق مرئية فوق الأرض والثامن طابق تحت الأرض «كيجال» يعمل أساساً للتي فوق الأرض وغير مرئي لغير المطلعين، وكان حول الزقورة فناء واسع محاط بعدد كبير من المساكن المختلفة الأغراض. ومن قمة أي - تيمن - انا - كي «برج بابل» كان يمكن أن يرى بوضوح إلى الجنوب الغربي برج إي - أوريمن - انا - كي المماثل تقريباً لهذا البرج في إي - زيد «إزيد» معبد الإله نابو في مدينة بارسيب المجاورة وكان لهذه الزقورة أساس مقداره ٨٢ × ٨٢ م والارتفاع نفسه على ما يبدو، وتغطي أطلاله تل بيرس - نمرود وقد اعتبروا لزمن طويل هذه الأنقاض أنها برج بابل، والواقع إن إيساجيله تهدم قبيل القرن الرابع قبل الميلاد. والاسكندر المقدوني الذي اختار بابل عاصمة له صمم على إعادة تعمير هذا المقدس وابتدأت الأعمال إلا أن وفاة الاسكندر المفاجئة في عام ٣٢٣ ق.م وحروب خلفائه من بعده أوقفتها.

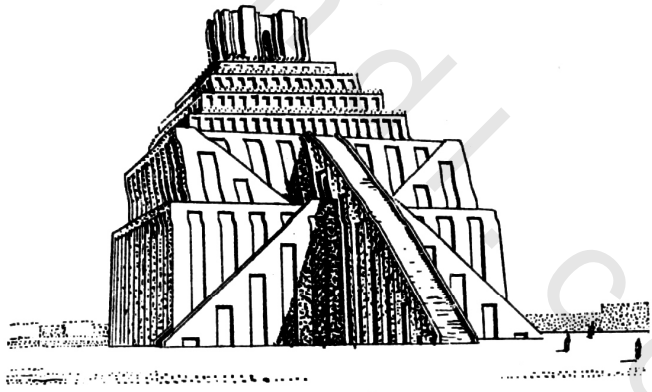

برج بابل أي - تيمن - انا - كي

أبعاد البرج

١ ـ الطابق الأول: ٩١,٥ × ٩١,٥ ×٣٣ م
٢ ـ الطابق الثاني: ٧٨ × ٧٨ ×١٨
٣ ـ الطابق الثالث: ٦٠ × ٦٠ × ٦
٤ ـ الطابق الرابع: ٥١ × ٥١ × ٦
٥ ـ الطابق الخامس: ٤٢ × ٤٢ × ٦
٦ ـ الطابق السادس: ٣٣ ×٣٣ × ٦
٧ ـ الطابق السابع: ٢٤ × ٢٤ × ١٥ «المعبد»

ولكن البابليين بقواهم الخاصة استمروا برفع أتربة إيساجيله وتشكل فيها تل الحميرا العظيم ولكن في عام ٢٧٥ ق.م أعاد الملك انطيوخس الأول سوتر بناء

إيساجيله ولكن زقورته إي - تيمن - آنا - كي لم تبن مرة أخرى «من جديد» وأثناء الحفريات عثروا فقط على أساساتها لما أعادوا بناءها حيث وجد برج بابل.

وفي الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة بين الفرات وسور المدينة وتقاطع آيبور - شابو والخندق الذي كان امتداده قناة ليبيل - حيجالا التي تشق المدينة بكاملها انتصب القصر الملكي المسمى القصر الجنوبي الذي كشف ر. كولد فيهي أطلاله تحت تل القصر «الحصن» وكان محاطاً بسور متين بطول ٩٠٠ م وهو عبارة عن قلعة حقيقية داخل المدينة والباب الخارجي الوحيد للقصر محصن بأبراج وموجود من جهة تقاطع آيبور شابو ويتألف القصر من خمس واحدات تحتوي كل واحدة منها على فناء مكشوف يتجمع من حوله قاعة مراسم «احتفالات» وعدد كبير من المساكن، وتتصل الفناءات فيما بينها ببوابات محصنة وكل واحدة منها عبارة عن قلعة داخل قلعة، الفناء الأول والمساكن المجاورة له كانت مشغولة بحرس القصر وحول الفناء الثاني توضع مقر رئيس القصر الشخص الثالث في المرتبة بين وجهاء القصر.

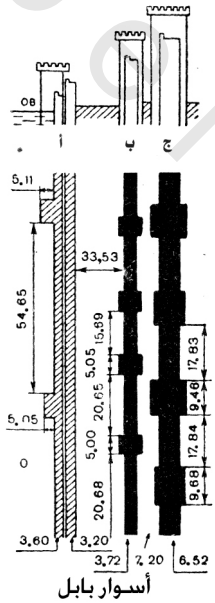

أسوار بابل
أ ـ سور الخندق
ب ـ سور نعمت هليل
جـ ـ سور ايمغور هليل

واحتل الفناء الثالث الأكبر مركز القصر «٦٠ × ٥٥ م» وهنا يقع المقر الرسمي الملكي. وتوضعت في الجهة الجنوبية من الفناء قاعة العرش العظيمة بطول ٥٢ م وعرض ١٧ م قامت فيها في ثلاث قناطر الوسطى باتساع ٦ م واثنتان جانبيتان باتساع ٤.٥ م وفي صدر القاعة انتصب العرش الملكي في مشكاة «حنية» مقابل القنطرة الوسطى. وكانت جدران القاعة مكسوة بالآجر المغطى بالمينا المتدرجة الألوان من الأبيض والفيروزي والبني، ومن الآجر نفسه أعمدة مزخرفة بشكل أشجار وسعف النخيل، وفي القاعة تنظم الاستقبالات وهنا يَمْثُل دافعو الجزية والسفراء الأجانب.

وحول الفناء الرابع توضع المخدع الشخصي للملك، أما على الفناء الخامس فيطل المسكن الفاخر للملكة ومساكن الحريم الملكي، ولحماية القصر من جهة النهر أقيم في منتصف سرير النهر برج محصن ملاصق مباشرة لسور القصر، وتدور مياه الفرات حول البرج لكي لا تجرف جدران القصر، وعثر في الزاوية الشمالية الشرقية من القصر أثناء الحفريات على صف من المحالّ المقنطرة مع منظومة من خطوط أنابيب المياه تشكل أساساً للحدائق المعلقة المشهورة إحدى عجائب الدنيا السبع في العالم القديم. ويقول المؤرخ البابلي بيروس «بعل - ري - أوشو» الذي كتب في بداية القرن الثالث قبل الميلاد: «أمر «أي نبوخذ نصر» بإشادة منصة حجرية في قصره مشابهة تماماً لمنظر الجبال وزرع فيها أشجاراً من مختلف الأنواع وبنى ما يسمى

بالحدائق المعلقة تلبية لرغبة زوجته الميدية التي فيها مثل هذا الشيء الذي اعتادت عليه في وطنها»[8].

وبناءً على قول ديودور[أ] شغلت مربعاً طول ضلعه ٤ بليترا «١٢٣.٥ م وبالتالي مساحتها ١٥٢٥٢.٢٥ م»[ب] وهي عبارة عن مدرجات اصطناعية قائمة على أعمدة حجرية سميكة يرتفع كل منها فوق الآخر إلى ارتفاع ٥٠ ذراعاً «٢٥ م» وأرضية المدرجات مكونة من كتل حجرية ضخمة مغطاة بالقصب الممزوج مع الإسفلت، وبعد ذلك يليها طبقتان من الآجر مع مونة من الجبس، ومن فوقها صفائح من الرصاص وفوق هذا الغطاء وضعوا طبقة من التراب بحيث تكفي لكي تنمو فيها الأشجار الكبيرة.

وزرعت الحدائق المعلقة بأندر الأنواع الجميلة من النباتات، وأقيمت العرائش والمشاكي «الكهوف» حول المدرجات، وكان أحد الأعمدة مجوفاً من الداخل وفيه الأنابيب التي ترفع فيها المياه بواسطة المضخات إلى الأعلى لسقاية الحدائق بالسواقي وكانت المضخات التي تشفط المياه من النهر مخفية في أساسات الحدائق وتحرك بواسطة العبيد.[9]

وكانت أسوار بابل لا تقل عنها عظمة بحمايتها ورمز استقلالها. وكانت المدينة محاطة بسورين: الداخلي في الحقيقة «سور» أو «السور العظيم» الذي حمل اسم إيمغور - إلليل «سمع الإله إلليل» والسور الخارجي الأقل ارتفاعاً «متراس» سمي نعمت /نيمت/ إلليل «مسكن الإله إلليل» وسميت أسوار بابل تكريماً للإله النيبوري إلليل الذي يماثله الإله البابلي مردوك. ونيبور كان لها أيضاً سوران سميا تكريماً للآلهة البابلية إيمغور - بعل ونيمت إلليل.

وقد أعيد إنشاء سور إيمغور - إلليل في عهد أسرحدون أما نيمت - إلليل فبعهد آشور بانيبال وشمش - شوم - أوكين وأعاد نابو بلاسر ونبوخذ نصر بناءهما وجعلاهما أكثر قوة وارتفاعاً، وكلا السورين كانا مكونين من الآجر الطري المعجون مع الإسفلت ومكسوين بالآجر المشوي، ووصلت سماكة سور إيمغور - إلليل إلى ستة أمتار ونصف المتر، وكان له في كل ٢٠ م أبراج كبيرة مستعرضة وأخرى صغيرة طولية على التناوب فيما بينها. وكان متراس نيمت - إلليل يبعد عنه بمقدار ٧.٢ م وسماكته ٣.٧٢ م وبنيت عليه كل ٢٠.٥ م أبراج مستعرضة ومستطيلة بأبعاد موحدة وظل ارتفاع السور غير معروف ولكنه كان لا يقل عن ٢٥ م بالنسبة لمتراس نيمت إلليل، وأعلى من ذلك لسور إيمغور إلليل ولكلا السورين وأبراجهما أسنان ومزاغل «طلاقات لرمي السهام» وعلى بعد ٣٣.٥٣ م أمام سور نيمت إلليل كان خندق بعرض ٢٥ بشكل حلقة متصلة تطوق المدينة بكاملها وأكمل بناءه الملك نبوخذ نصر الثاني وكان لأسوار بابل ثمانية أبواب أعطيت معانٍ مقدسة، ويمر من كل باب

أ- ديودور الصقلي نسبة إلى جزيرة صقلية جنوب إيطاليا - مؤرخ إيطالي - المترجم.

ب- في الواقع كما دلت الحفريات لم يكن هذا صحيحاً فالطول الأقصى كان نحو ٤٢ م والعرض الأقصى نحو ٣٠ م والمساحة ١٠٠٠ م٢.

إلى داخل المدينة شارع مستقيم وعريض يؤدي إلى أحد معابد المدينة ومن خارج كل باب يبدأ طريق يؤدي إلى المدينة التي يعبد فيها الإله الذي سمي الباب والشارع والمعبد في بابل باسمه وتعتبر أبواب مدينة بابل هي: التالية:

- باب الإلهة عشتار - الطريق إلى أغاد
- باب الإله سين - الطريق إلى بيت خابان على الدجلة
- باب كيش أو باب الإله مردوك

وعند هيرودوت باب الإله بعل

- باب كوت حيث يعبد الإله نرجال، ولكن شارع نرجال السعيد أو شارع الإله مردوك من باب كيش يؤدي مباشرة إلى إيساجيله.
- باب الإله زاباب أو باب الإله نينورتا أو الكيشي - الطريق إلى كيش
- باب الإله إيلليل - الطريق إلى نيبور
- باب الإله أوراشا - الطريق إلى دلبات ومن هذا الباب يمتد شارع الإله نابو والإلهة نان إلى معبد الإلهة جول «نان» وإيساجيله الذي يمر فيه الموكب بعيد السنة الجديدة مع صنم الإله نابو القادم من بارسيب
- باب الإله شمس - الطريق إلى لارس
- باب الإله أداد أو الباب الاكوتسكي - الطريق إلى اكوتس

ويعبتر باب إيساجيله المقدس في مركز المدينة الباب التاسع لها.

وكان باب الإلهة عشتار المدخل الاستعراضي لمدينة بابل «كشفه ر. كولدفيهي بالكامل» مكسواً بالآجر المطلي بالميناء بخلفية زرقاء مع رسوم ملونة لثيران بابل الضخمة والتنانين المتناوبة مع بعضها، وأقيم أمام الأبواب وعلى جانبي كل منها حصنان قويان يمر من بينهما طريق متهادية. وكانت جدران الحصون التي تطل عليها مكسوة أيضاً بالآجر المطلي بالميناء بخلفية فيروزية مع رسوم ملونة للأسود وجذوع وسعف النخيل، ووصل عرض الطريق نفسها واستمرارها شارع ايبور شابو داخل حدود المدينة إلى ١٠-١٢ م.

وجسورها بعرض ٦ م وكانت مرصوفة ببلاطات من البريشة[أ] الوردية اللون، أما الأفاريز «الجوانب» فببلاطات من الحجر الكلسي اللبناني الأبيض[ب].

وكان بالقرب من باب الإلهة عشتار في شارع ايبور شابو معبد الإلهة نينماخ «عشتار» البديع الجمال، وفي الجانب المقابل انتصب الجدار الجنوبي للقصر الذي ترتقي عليه الحدائق المعلقة. وفي الحصن القائم أمام باب الإلهة عشتار من اليسار كان القصر الملكي المركزي الذي بناه الملك بنوخذ نصر الثاني في ١٥ يوماً[10] وأنشئ فيه متحف مَلَكي فريد من نوعه حيث حفظت فيه الكتابات القديمة والنقوش والتماثيل

أ- البريشة: صخر مؤلف من شظايا زاوية متلاحمة - المترجم.

ب- الجزء الخارجي من باب الإلهة عشتار وقطاع من الطريق المتهادية أعيد تكوينها بالحجم الطبيعي باستخدام تكسيتهما الأصلية ونقلا من بابل إلى متحف آسيا الدنيا في برلين - المؤلف.

والمكتبة والغنائم التي غنمها الملوك البابليون في أوقات الحملات بما فيها الحملة على آشور.

وفي خارج حدود أسوار المدينة كما تحدثنا سابقاً كانت تقع الضواحي التي كانت محاطة في عهد نبوخذ نصر الثاني بالسور الخارجي القوي الذي يبدأ من عنده التعرف على الغرباء عن المدينة والذي ترك عند هيرودوت ومواطنيه أثراً صاعقاً «بابل محاطة قبل كل شيء بخندق عميق وعريض مملوء بالماء - كتب هيرودوت، وخلف الخندق يقع سور عرضه ٥٠ ذراعاً ملكياً «٢٦ م» وارتفاعه ٢٠٠ ذراع «أكثر من ١٠٠م» والذارع الملكي أكبر من الذراع العادي بثلاثة أصابع، ويجب عليَّ القول «أي هيرودوت» أيضاً لماذا استخدمت التربة المأخوذة أثناء ذلك من الخندق وبأي طريقة بني السور.

كانوا يحفرون الخندق وفي الوقت نفسه يصنع العمال الآجر من التراب المستخرج، وبعد تحضير كمية كافية من الآجر يشوونها بالتنانير «جمع تنور» وكان الإسفلت الساخن بمثابة الأسمنت «الملاط» وبعد كل ثلاثين مدماكاً من الآجر كانوا يرصون صفاً من ضفائر القصب. وفي بادئ الأمر يحصنون حواف الخندق ثم يقيمون بالطريقة نفسها السور ذاته، ويقام على السور أبراج وحيدة الطابق الواحد مقابل الآخر ويترك في الوسط بين الأبراج ممر لأربعة خيول، وللسور بكامله مئة باب مصنوعة برمتها من النحاس مع عصائد وعوارض نحاسية»[أ](11).

ودلت الحفريات على أن سماكة سور بابل الخارجي بلغت ٧.١٢ م وله في كل ٢٥.٥ م منه برج مستطيل بعرض ٨.٣٧ م وعلى بعد ١٢ م عن السور هناك خندق مطوّق بسور من الآجر سماكته ١١.١ م وعلى ارتفاع هذا السور يقع القصر الشمالي الفناء الصيفي لإقامة الملك الذي بناه نبوخذ نصر الثاني، وتشكل أنقاضه الآن تل بابل الذي لم يزل غير منقب عنه حتى الآن، وحول هذا القصر نمت الأرباض الفاخرة مع فيلات الوجهاء والأغنياء المدعوين بيت - شار - بابيل «بيت ملك بابل». وأنساب الفرات في وسط بابل فاصلاً المدينة الحديثة عن المدينة القديمة، وحملت ضفته اليسرى ضمن حدود سور المدينة اسماً مقدساً - أراخت - بينما سميت اليمنى بوراتو «أي الفرات» وبلغ عرض النهر في بابل ١٥٠ م.

وفي عهد الملوك: نبوخذ نصر الثاني ونرجال شارو - اوتسور ونابونيد بنيت الكورنيشات والجسر عبر الفرات، وينسب التقليد بناءها إلى نيتوكريس عقيلة الملوك بنوخذ نصر الثاني ونابونيد «نيتوكريس - يقول هيرودوت - أقامت كورنيشات تلفت الانتباه على طول ضفتي النهر لضخامتها وارتفاعها، وأمرت بحفر حوض لبحيرة قريبة جداً من النهر على مسافة بعيدة إلى الأعلى من بابل وأعمق من مستوى مياه النهر، ومحيط هذا الحوض ٤٢٠ ستاداً «نحو ٨٧ كم» وبناء الكورنيش من التراب

أ- بحسب اكتيسياس كان ارتفاع سور بابل ٥٠ قامة«٩٢.٥ م» وبالعرض الذي تسطيع أن تسير فيه ستة عربات بنسق واحد، وبلغ عدد أبراجه ٢٥٠ برجاً. وكتب رحالة يونانيون آخرون أن السور وصل ارتفاعه إلى ٥٠ ذراعاً «٢٥ م» وسماكته ٣٢ قدماً «١٠ م» وله ٥٠ برجاً بارتفاع ٦٠ ذراعاً «٣٠ م» لكل منها.

الذي استخرج من الحفرة وعندما انتهى حفر البحيرة نقلت إلى هناك، حسب التعليمات، الحجارة التي بنيت بها الجدران حول ضفاف البحيرة.

وبما أن بابل مكونة من قسمين يقع بينهما النهر وكان على أي ساكن في زمن الملوك السابقين يريد الانتقال من أحد الطرفين إلى الآخر أن يعبر النهر بالقارب، وهذا على ما أرى «أي هيرودوت» كان متعذراً فاهتمت نيتوكريس بهذا وبحفر الحوض للبحيرة تركت لنفسها تذكاراً تالياً «تليداً» وأمرت بقطع حجارة كبيرة الطول، وعندما أصبحت الحجارة جاهزة والحوض محفوراً حولت كل مياه النهر إلى الحوض المحفور وإلى أن يمتلئ ذاك بالماء ويجف السرير السابق للنهر تماماً أمرت ببناء جوانب ضفتي النهر في المدينة بالآجر المشوي والمنحدرات الممتدة من الباب إلى النهر بالطريقة نفسها التي بنيت بها الأسوار، وبعد ذلك ببناء جسر في منتصف المدينة تقريباً من كتل الحجارة المقطوعة وتثبيتها بالحديد والرصاص. ووفقاً لتعليماتها يصفون مع بداية كل يوم على هذا الجسر أرضية من العوارض الخشبية ليعبر عليها البابليون وترفع الأرضية في الليل لكي لا ينتقلوا عبر النهر ويسرقوا بعضهم بعضاً، ولما امتلأ الحوض المحفور بمياه النهر وانتهى بناء الجسر على النهر أمرت نيتوكريس مرة أخرى بتحويل مياه الفرات إلى المجرى السابق»[12].

والحوض الاصطناعي لتحويل مياه الفرات هو قناة بالوكات التي دار الحديث عنها سابقاً.

وبقايا الجسر - ثماني قناطر من كتل الحجر الكلسي والآجر المشوي بطول ٢ م وعرض ٩ أمتار لكل منها ووصل الطول الكلي للجسر ١١٥ م وعرض قسم المرور منه ٦ أمتار والفتحة الجانبية على الضفة اليمنى كانت أكبر بمرتين من بقية الفتحات، وهنا كان جزء التغطية الذي يرفعونه أثناء الليل. وحولت الكورنيشات العالية والقوية كل جزء من المدينة إلى قلعة منيعة. وإلى جانب الجسر الدائم بني في داخل حدود المدينة جسر عائم على الفرات أجَّرته السلطات الحاكمة في المدينة لرجال الأعمال الذين حَصَّلوا رسماً جسرياً «أي رسم عبور» من العابرين.

«والمدينة نفسها - كتب هيرودوت عن بابل - مزدحمة بالبيوت الثلاثية والرباعية الطوابق وتتقاطع مع بعضها بشوارع مستقيمة موازية للنهر ومتعارضة «متعامدة» مع المؤدية إلى النهر»[13].

وأثار تخطيط بابل الدهشة في نفوس الغرباء المعتادين على الشوارع الضيقة والملتوية في مدنهم وكان البابليون والآشوريون أول من بنى المدينة بشوارع مستقيمة متقاطعة بزوايا قائمة واستوعب اليونان والرومان مبدأ بناء المدن هذا في زمن الهيلينية ولكنه أهمل فيما بعد في القرون الوسطى، ورجع إليه المعماريون الأوربيون فقط في عهد المكتشفين الأوائل بالقرنين الثامن والتاسع عشر.

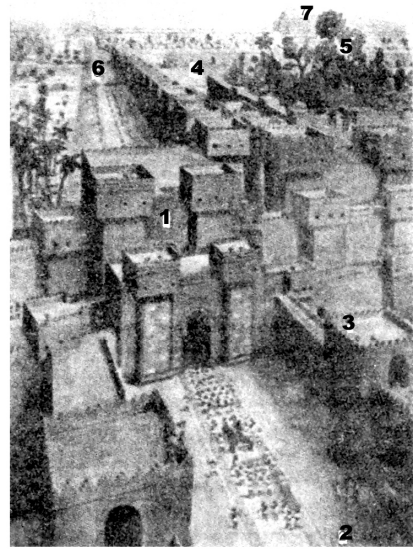

منظر بابل من الشمال
١ ـ باب الإلهة عشتار. ٢ ـ طريق المواكب
٣ ـ البوابة المركزية. ٤ ـ القصر الجنوبي
٥ ـ أي - تيمن - انا - كي

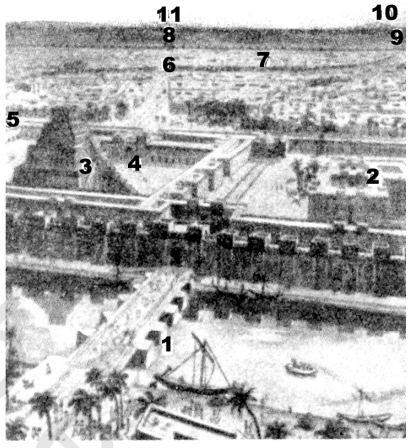

منظر للمدينة القديمة من الغرب
١ ـ الجسر على الفرات. ٢ ـ نوخار "أي هيكل الإله مردوك"
٣ ـ أي - تيمن - انا - كي "برج بابل". ٤ ـ البوابة المقدسة.
٥ ـ شارع ايبور شابوم. ٦ ـ شارع نرجال السعيد.
٧ ـ قناة ليبلخيجال. ٨ ـ باب كيش.
٩ ـ باب الإله زاباب. ١٠ ـ مدينة كيش.
١١ ـ مدينة الكوت.

ووقع في أساس مخطط بابل ثمانية شوارع عريضة يؤدي كل منها إلى أبواب المدينة وتنضم إليها الشوارع الضيقة والأزقة والعطفات المسدودة «الأزقة غير النافذة» بالبيوت السكنية الخاصة، وهي بالطبع لم تكن تبدو جميلة بهذه الدرجة كالشوارع وغير مبلطة بالحجارة ولكنها بقيت بحالة نظيفة ومرتبة، وبما أن أرض المدينة عبارة عن طبقة زراعية سميكة كانت أرضية الشوارع مغطاة بما يسمى في لغة بناة الطرق المعاصرة خليطة مثالية من خامات الآجر المتشققة «المكسرة» والنفايات والرماد والأوعية الخزفية المكسرة المدكوكة بإحكام.

والبيت المديني كما هو شائع في الشرق حتى الآن يطل على الشارع بجدران مصمتة وتنفتح جميع غرفه على الفناء الداخلي. وزرعت الفناءات عند مالكي البيوت الأغنياء بالأشجار وكان فيها البرك والنوافير.

وكقاعدة كانت عائلة مالك البيت تحتل الطابق الأرضي من الجناح الجنوبي الذي كانت أبوابه ونوافذه التي تطل على الشمال البارد محمية من أشعة الشمس المحرقة، وفي الطوابق العليا وبقية الأجنحة توزعت غرف الإدارة والمعيشة والخدم والنزلاء «أو المستأجرين».

وتقام المباني من الآجر الطري والقصب وتلزم العوارض الخشبية فقط للسقوف المستوية والسقوف بين الطوابق، واستخدمت جذوع النخيل وبعض أنواع الأخشاب المحلية لهذا الغرض.

أما الأرز والسرو والبلوط والزان الوارد من لبنان يستخدم فقط عند بناء المعابد والبيوت الخاصة بالأغنياء الكبار، وكان الخشب غالي الثمن واعتبرت الأبواب الخشبية من الأموال المنقولة: ينزعها المستأجر من البيت ويحملها مع اللوازم الأخرى، وكانت أرضيات البيوت طينية.

وكان في مناطق التخوم والضواحي الكثير من البيوت من الطراز الريفي التي هي عبارة عن أكواخ قصبية وطينية، واستخدمت حزم القصب المربوطة بشدة كأعمدة وغطيت الفواصل فيما بينها بالحصر وتليس جميع المباني بالطين، والطين الطري والقصب مواد قصيرة العمر «لا تعمر طويلاً» ولذلك تتطلب المباني المنشأة منها إصلاحات مستمرة كترميم السقوف وسد الشقوق وتبيض الجدران... الخ وعندما يتلف البيت كلياً يهدمونه ويهدمون ساحته وعليها يبنون بيتاً جديداً. وكانت أرض المدينة غالية جداً والمباني متلاصقة مباشرة مع بعضها بعضاً وكثير من البيوت كانت موجودة ضمن الحارات وتتصل بالشارع بواسطة الأزقة المسدودة «مخارج» وزد على ذلك أن تلك المخارج كان يستخدمها عدة جيران وكثيراً ما نشأت بينهم الخلافات على هذه الأرض، وبعضاً من هذه الخلافات معروف في وثائق عائلة إكيبي فنابو - آخي - أدين ابن شول نجل إكيبي أجبر جيرانه في البيت في بابل في ١٤ آذار عام ٥٥٤ ق.م على تخطيط حدود الزقاق الذي كانوا حتى هذا التاريخ يستخدمونه سوية، وخصص لكل مالك منزل شريط «قطعة مستطيلة» من الأرض، ومنع نابو - آخي - أدين الجيران من استخدام المخرج المخصص له.[14]

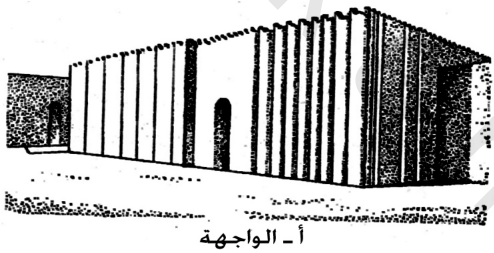

أ ـ الواجهة

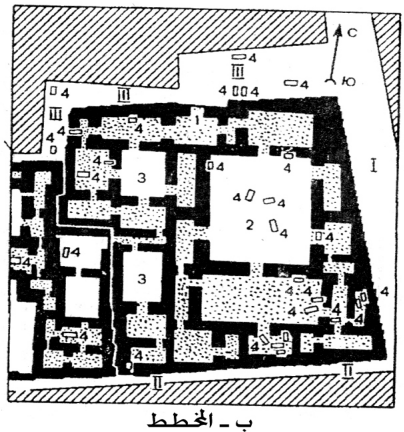

ب ـ المخطط

بيت خاص لثري في منطقة بابل «كادينجرا»
ا ـ شارع. II ـ زقاق. III ـ زقاق غير نافذ «مخرج»
١ ـ مدخل من الشارع. ٢ ـ الفناء الكبير. ٣ ـ الفناءات الصغيرة. ٤ ـ قبور.

وقصة أخرى من مثل هذا النوع أجبرتنا على أن نتذكر من غير قصد ن. ف غوغول و «روايته كيف تشاجر إيفان إيفانوفتش مع إيفان نيكيفووفيتش فإيفان إيفانوفتش وإيفان نيكيفورفيتش البابليان بسبب جدار بيت كان الأمر بينهما هكذا».

في عام ٥٢٧ ق.م اشترى إيتي - مردوك - بالات ابن شابو - آخي - أدين نجل إكيبي من زاباب - إدين ابن بعل - إدين نجل أداد - أوسيب بيتاً عند باب كيش في بابل لقاء ٤.٥/ من «٢.٢٥ كغ» من الفضة. وكان هناك بيت آخر مبني بجانب هذا البيت ظل ملكاً لزاباب - إدين وعاش الجيران وقتاً طويلاً بسلام ووئام ولكن - إيتي - مردوك - بالات مات في عام ٥٢٢ ق.م ولم يرق ذلك لابنه مردوك - ناصر - إبلي جار زاباب - إدين لأنه لم يرد أن يبيعه بيته الثاني ولكن سرعان ما عرف السبب الباعث على الخلاف وهو أن عوارض سقف بيت زاباب - إدين كانت مثبتة في جدار ذلك البيت الذي باعه في عام ٥٢٧ ق.م إلى عائلة إكيبي وهكذا في عام ٥١٨ ق.م طلب مردوك - ناصر - أبلي من زاباب - إدين نزع العوارض وهذا يعني أن يهدم بيديه سقف منزله أو يبيعه لعائلة إكيبي.

وبالطبع عاند زاباب - إدين وعندئذٍ رفع مردوك - ناصر - ابلي عليه الدعوى في ٢٨ تشرين أول عام ٥١٨ ق.م ربح الدعوى وذلك بأن الجدار المتنازع عليه هو ملك له، وقضوا بأن يرفع زاباب - إدين عوارضه دون أن يمس الجذوع وأنبوب تصريف المياه في الجدار وتعويض الخسائر التي سببها المدعي على البيت وكذلك المظهر الخارجي للشارع «أي الأضرار التي أحدثها بالشارع العام».[15]

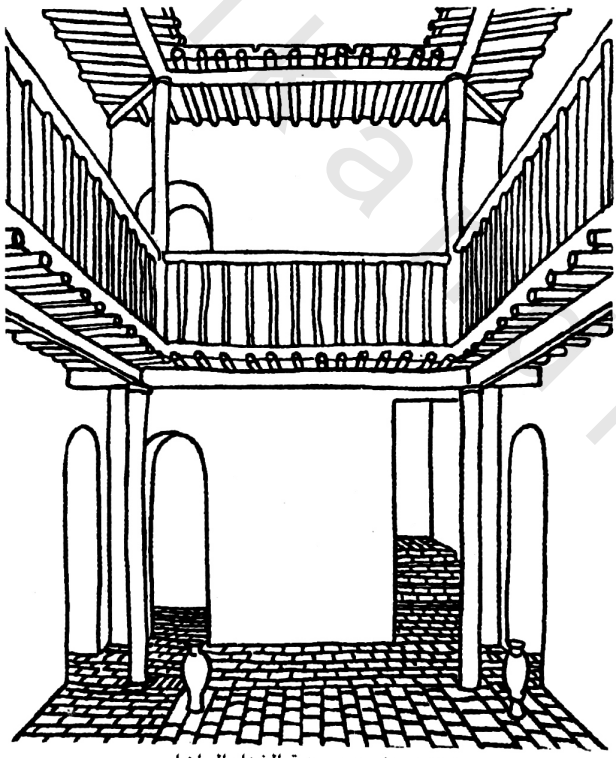
بيت مديني من جهة الفناء الداخلي

واشترى مردوك - ناصر - ابلي بالذات في ٢٣ كانون ثاني عام ٥١٧ ق.م من الجيران في بارسيب شريطاً «قطعة» من الأرض بطول ٧.٥ اذرع «٣.٧٥ م» وبعرض ١٤ إصبعاً «نحو ٣٠ سم» بـ ١٥ شاقل «١٢٦ غ» وضمة إلى مخرج بيته وبطبيعة الحال منع على الجيران أن يضعوا قدماً على هذه الأرض.[16]

وفي المدن وبخاصة في بابل نفسها حيث يوجد الكثير من الذين لا مأوى لهم والناس القادمين كان الطلب على البيوت عظيماً وبالجهد استطاع الأغنياء شراء بيت

لهم. وظهر ملاك البيوت الكبار الذين يملكون عشرات البيوت التي تشكل حارات بكاملها.

وهكذا كان عند عائلة إكيبي ٤٢ بيتاً في بابل و٧ بيوت في بارسيب وبيت في كل من كيش وشاخارينا والمدن الأخرى.

وكانت البيوت تؤجر في المدينة وكان المستأجر يدفع كقاعدة الإيجار مرتين في السنة وزيادة على ذلك ثلاث مرات «ضيافة» للمالك، وكان المستأجر يقوم بالإصلاح الجاري للبيت كترميم السطح وسد الشقوق وتبييض الجدران وكذلك دهن البيت باللون الأخضر في أوقات الأعياد وعلى حسابه الخاص.

والإصلاح المتوسط مع استخدام الآجر والقصب والخشب كان أيضاً يقع على عاتق المستأجر ولكن قيمته تدخل في حساب الإيجار.

وعندما يصبح البيت متداعياً بالكامل يؤجره المالك للمتعهد الذي يبني بيتاً جديداً وبدلاً من الأجرة يحق له أن يؤجر المعاد بناؤه لعدة سنوات.

ولم يتحمل أصحاب البيوت أي نفقات لصيانة البيوت وبدلاً من ذلك كانوا يتلقون إيرادات لا بأس بها.

وكان أصحاب البيوت يفضلون التعامل مع المستأجرين الكبار القادرين على وفاء الدين، وكانوا ينظرون إلى الفقراء كنظرتهم إلى الأعباء والذين كانوا بصعوبة ينجحون بالعثور على مسكن في مدينة مثل بابل.

وكانت البيوت الخاصة الفاخرة مع الحدائق وتمديدات المياه والمسابح وأنظمة التخلص من مياه المجاري «أنظمة الصرف الصحي» وحتى الآبار في داخل البيت والأقنية كانت فقط ميسرة للناس الأغنياء.

وكان الفقراء يتكدسون في الخصص والأكواخ والبيوت المتهدمة وفي غرف البيوت المتعددة الطوابق ويستخدمون المياه من القنوات والأنهار.

وكانت بابل مدينة صاخبة مزدحمة بالناس وتجذب الناس إليها كالمغناطيس، ولم تحتل بيوت الدعارة المكان الأخير بين مفاتنها والمطاعم الغالية والحانات المشبوهة التي كثيراً ما تكون أوكاراً لمختلف الأوباش، وكان العبيد المعتقون لقاء الجزية هم الذين يملكون هذه المؤسسات، وكثيراً ما كانت الإماء «الجواري» يجمعن ما بين حرفة صاحبات الحانات والدعارة، وكانت صناعة المشروبات الكحولية - نبيذ العنب والأنواع المختلفة من السكير «نوع من البيرة أو البراغة»[أ] من التمر والشعير والاتجار بها عملاً مربحاً، وسمح مالكو العبيد عن

أ- البراغة هي البيرة المصنوعة في البيت - المترجم.

طيب خاطر لعبيدهم أن يعملوا بهذه الحرف ويطلقونهم مقابل الجزية ويعطونهم الأموال اللازمة للشراء.

وكان نابو - إدين - ابوش أحد هؤلاء العبيد الذين اشترتهم عائلة إكيبي في عام ٥٤٧ ق.م من نابو - ايريش ابن تابنيا نجل آخو - باني وأعطته لشريكها مردوك - شابيك - زيري ابن نابو - شوم - إدين نجل نادين - شيما وأظهر العبد مواهبه كمتعهد يشتري بالجملة «يحتكر» المحاصيل من مالكي الأرض الصغار.

وفي ٦ آذار عام ٥٤٤ ق.م قدم له السيد عبداً آخر هو كوربات - نابو - ناكباتو وإيداعاً بقيمة ٥ منات «٢.٥ كغ» من الفضة و١٣٠ مربطاً فارغاً وافتتح العبد خاناً وسار العمل بشكل ناجح بحيث تلقى نابو - إدين - ابوش من السيد إيداعاً جديداً بقيمة ١ من «٠.٥٠٥ كغ» من الفضة وعبداً للخدمة[17]، ووقعت الجارية إيسخونا توم التي تعود أيضاً لعائلة إكيبي عقداً مع سيدها أني - مردوك - بالات الذي أعطاها مؤونة من السكير والتمر وخزانة وآنية برونزية ومفروشات وأدوات بمبلغ إجمالي قدره منين وشاقلين «١.٠١٩ كغ» من الفضة وكذلك أعطاها مسكناً بالأجرة.

وافتتحت ايسخوناتوم مؤسسة فاخرة للتسلية في مدينة كيش أتت بدخل لا بأس به[18] وبالحرفة نفسها عملت نانا - انا - بيتيشو وخاشتا الجاريتان المبدلتان[أ] لعائلة إكيبي.[19]

وفي مدينة دلباتي كانت الخمارات وبيوت الدعارة مركزة عند ما يسمى «باب الخلاطات» فهنا كانت الجواري تمتلكن الخمارات والأوكار والمواخير ويشتغلن بتحضير الخلائط المتنوعة من المشروبات، وهذا يعني تحضير الكوكتيلات البابلية وكان هناك بوابة بالاسم نفسه في مدينة سيبار.[20]

ولم يقل العالم الإجرامي «السفلي» القديم لبابل شهرة عن زمن اللصوصية في بغداد في عهد الخليفة هارون الرشيد «٧٨٦-٨٠٩ م» و «حوش العجائب» في باريس القرون الوسطى أو قطاع الطرق الأمريكان والطليان في الزمن الحاضر.

وفي بابل كان من الممكن الحصول حسب الطلب على تأهيل عال فريد في نوعه وشهادة دبلوم معلم في العمل الإجرامي.

وهكذا في نيسان عام ٦٢٩ ق.م في مدينة بارسيب تعهد واحد اسمه نابو - اوتساللي خلال سنتين وخمسة أشهر أن يعلم البابلي الحر بعل - آخي - ريبا حرفة اللص المسلح العالي المهارة والقوادة، ولأجل ذلك استودع المعلم إلى جانب إيرادات

أ- ospuhbi -Slave= quitren = العبد المعتق مقابل رسم بدلي يدفع لقاء الأعفاء من القيام بخدمات معينة - المترجم.

«أعمال» التلميذ شاقلين «١٧ غ» من الفضة إلى جانب «الضيافة» وفي حال فشل التلميذ في التعليم له الحق في أن يسترد من المعلم ١ سوتو «١٥ ليتراً» من الشعير عن كل يوم من مدة التدريب وكانت الاتفاقية بصورة عقد رسمي.[21]

وكان لا ينصح بالسير منفرداً في بابل ليلاً وليس عبثاً بشهادة هيرودوت أنهم كانوا يرفعون تغطية الجسر على الفرات ليلاً.

وسببت عصابات اللصوص وقطاع الطرق عناءً لا يستهان به للسلطات ففي عام ٥٦١ ق.م جاء مدير شرطة «حاكم» معبد آني في أوروك إلى بابل الذي ابتدأت معرفته بالعاصمة بسبب أن اللص نابو - إيتير ابن بلشونو وأخيه سرقا حماره.[22]

ومرة وقع المخبر بعل - نادين - ابلي على أثر مافيا حقيقية ورأى أنه من الضروري تجاوز جميع المراجع والإبلاغ عنها مباشرة للملك.

وكان زعماء المنظمة إيشتار - شوم - ايريش ابن شاكين - شومي وأخوه نانا - أبوش وابن عمها نابو - آخي - إدين من سكان أوروك. وأعضاء العصابة نابو - ايتير واردي - إنين وابن الأخير بعل - إيتير قد نظموا إغارة على مركز شرطة ملكي وقتلوا حاميته.

واكتشف المخبر وصول اللصوص المسلحين إلى سيبار وبارسيب وتأكد أيضاً أنهم على اتصال مع الأوغاد قطاع الطرق ودار الحديث عن منظمة إجرامية عاملة في كل أنحاء البلاد وانتهى التقرير بالكلمات «دع الملك يقرأ بسرعة هذا البلاغ لكي لا يذهب الرجال «يعني اللصوص» إلى قطاع الطرق»[23]. هكذا كانت بابل «بوابة الإله» أضخم وأغنى مدن العالم حيث الأبهة والترف والتهتك المتأنق تتلاءم مع أحياء الفقراء والإجرام في المدينة العظيمة التي لم يعرف لها منافسون.

وكانت بابل المدينة المقدسة في الوقت نفسه بابل الملعونة الحاوية كل العيوب منذ أن وجدت على وجه الأرض.